صفحات

من دموع وقديسون

صفاء علي حميد

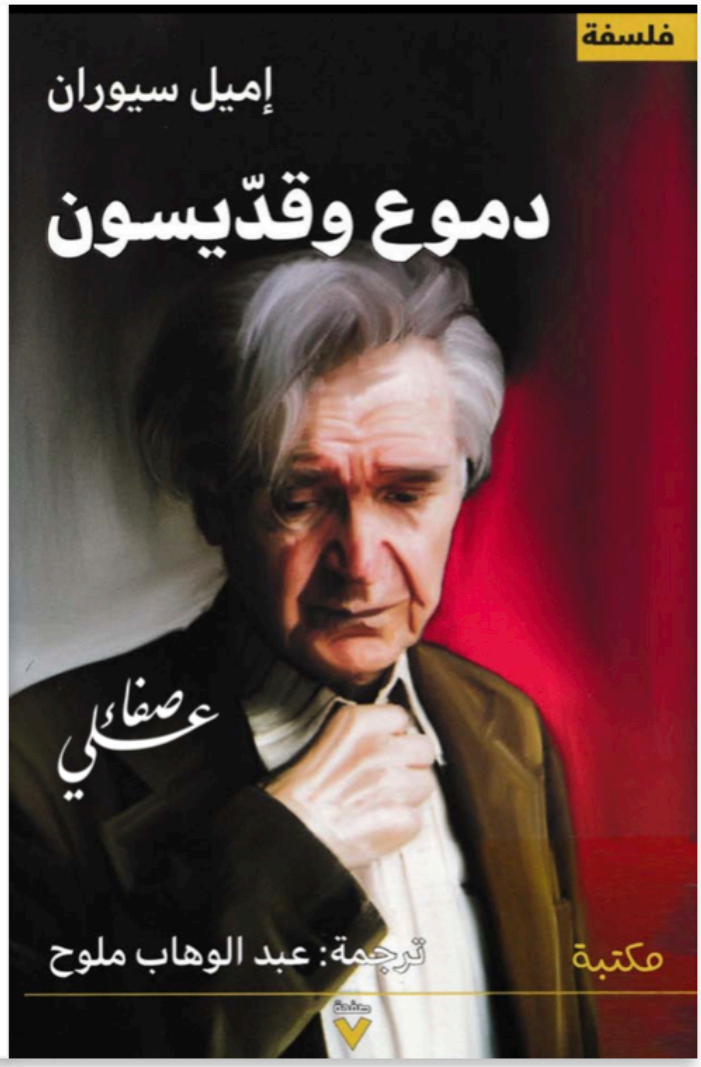

عند الفلاسفة ولا توغل بعيدا في التحليل هو «التفلسف شعريا» فسيوران يسعى لتحفيز خيال القارئ وعقله من خلال أفكار يصوغها في شكل صور شعرية وهكذا كان رأي مترجمة هذا الكتاب حين قالت «هناك عند كل كاتب صورة مفتاح، تستجيب لوسواس داخلي عميق وكاشف».

يثبت سيوران في هذا الكتاب أنه يواصل مشروع نيتشه ومن قبله شوبنهاور لكن ليس بمنهج الكتابة نفسه ولا الطرح ذاتهُ، إذ لا يرى سيوران فرقا بين الفلسفة والشعر بل إنّه يعلي كثيرا من مقام هذا الأخير بما أنه فن سام بما يتوفر عليه من إمكانيات قادرة على شحن الروح بطاقات إيجابية من شأنها أن تحرر الكائن من سلبيته الذهنية وعاطفته الانفعالية شأنه في ذلك شأن الموسيقى والفن التشكيلي وهو ما جعله كثيرا ما يعود في هذا الكتاب لذكر شعراء أو موسيقيين أو رسامين تركوا بَصْمَاتِهم في التاريخ.

لقد جعلت الكنيسة من «القديس» وظيفة إدارية يتم الارتقاء إليها من خلال مناظرة داخلية تستوجب عدة شروط بل و يتم تطويب الراهب قديسا على مرحلتين وكما لو أن المرحلة الأولى هي مرحلة تربص في القداسة ويمكن للكنيسة أن ترفض الترشح للتطويب كما هو الحال بالنسبة إلى الراهبة المتصوفة كاترين إيمريش، ومن خلال هذا التمشي أفرغت الكنيسة

عدم رؤيته لاي فرق بين الفلسفة والشعر هو صحيح ولا شائبة فيه وعليه . . . . لكن بشرط ان يكون ايجابياً محرراً للروح من سلبيتها فأن حصل الهدف فلا يكون هناك فرقاً بينهما وكل واحد منهما يؤدي نفس الغاية والغرض !

«القديس» من كل ما هو علاقة روحانية شفافة صادقة مع الله بما فيها تقرب روحاني بين المتعبد وربه وحولته إلى مجرد رتبة كنسية إدارية عالية ومن هنا يأتي موقف سيوران من القداسة بمفهومها الكنسي، ليستعرض فكرته عن المسيحية والمسيحيين وفكرته عن الله، وهو في كل هذا يعمق تحليل فكرته عن الوجود وعن الكائن ويرى أن الدين مثّل عائقا حقيقيا منع تطور الإنسان الفكري وصادر كل أدوات تحليله المنطقية كما اغتال فيه جوهر روحه الداخلي عكس الفن الذي هو الوسيلة الوحيدة لشحن الروح بطاقات ايجابية من شأنها أن تجدد تطلع الإنسان للحياة والوجود عموما.

يرى سيوران أن الكنيسة بسياساتها المختلفة عبر الأزمان قد قتلت الله في الإنسان وأن الإنسان الذي مازال متعلقا بالله صار يبحث عنه في دموعه ويتقرب إليه من خلالها وهو في هذا يتفق مع شاتوبريان الذي قال ذات مرة:

«يرى المسيحيُّ نفسه مثل مسافر يعبر الأرض في وادي الدموع ولا يرتاح إلا في قبر».

ولهذا السبب يرى سيوران أنّه من الأجدر وزن الدموع يوم الحساب الأخير عوض وزن الأعمال.

كتاب صادم يعيد النظر في عدة مسلمات وبداهات في علاقة الكائن بالله.

7

هذه لا تخص المسيحي فحسب . . .

كل الاديان تذرف الدموع من اجل لا شيء . . .

وكان صادقاً سيوران عندما قال وزن الدموع عوضاً عن الاعمال وهذا تهكم فضيع بالمسيح وادبياته وما يعمله من قبح غير جميل . . .!

كـان اميـل سـيـروان يـرى بـعـدم وجـود اي فـرق بـين الفلسفة والشعر . . .

لماذا ؟

لان الـشـعـر يؤدي نـفـس رسـالـة الـفـلـسـفـة مـن حـيـث ايقاض الضمير وبث الروح الايجابية فيه . . .

وهذا ما فهمه هو سابقاً من الفسلفة اذ كانت انذاك تعني دراسة السلوك السوي وتطور مفهوماً واصبحت تبحث الوجود بما هو وجود . . .!

في كتابة دموع وقديسون يمزج سيروان بين الوصول الى الطهارة المطلقة وبين الاكثار من البكاءيات الفارغة وكأن البكاء بداية لفتح طريق المعارف الروحانية ولا اعلم من اين جاءوا بهكذا مفهوم تأديبي يجعل النفس الانسانية دائماً في تأنيب واستحقار فلا يمكن لك ان تصبح قديساً ما لم تكثر بالدموع ؟؟!!

شكسبير المتأثر بالبراءة، أم دوستويفسكي الملائكي المنفي في أحد أنحاء سيبيريا.

سأظل طول حياتي أطوف حول نواحي القديسين.

في وقت ما؛ كان من الممكن مخاطبة إله خفي متى شئت، إلهٌ يُقبر تأوهاتك في عدمه. أما اليوم؛ ودونما عزاء لنا، ليس لنا من نشكو له أوجاعنا.

قد يداخلنا الشك، أن هذا العالم كان قديمًا في الله؟

ينقسم التاريخ إلى قديمٍ يشعر الناس فيه بالانجذاب إلى العدم المختض بالألوهية، وإلى حديثٍ حيث ليُسَّ العالم محروم من النفس الإلهي.

لقد وهبتني الموسيقى الكثير من الجرأة في مواجهة الله؛ وهو ما ينأى بي بعيدًا عن التصوف الشرقي.

في يوم الحساب الأخير سوف يقع وزن الدموع فقط.

العيون لا ترى أي شيء. لقد أصابت كثيرا «**كاترين إيمريش**»[4] عندما قالت إنها لا ترى إلا بقلبها! فكيف إذن لا يمكن للقديسين أن يروا أبعد منا، فعندهم وحدهُ القلبُ يبصرُ؟

(4). كاترين إيمريش: 1774-1824. راهبة ومتدينة ألمانية، ظلت لسنوات عديدة ترى رؤى وفي هذه الرؤى رأت عذابات وآلام المسيح وظهرت في مختلف أنحاء جسدها ندوب هي نفس الندوب التي ظهرت على جسد المسيح أثناء صلبه قام الشاعر الألماني كليمنس برنتانو بتجميع رؤاها في عدة ملفات ومنها كتيب "تأملات" الذي أثار ضجة في الكنيسة وهو ما منع تطويب الراهبة كاترين قديسة.

11

سيروان كان يخاطب الإله متى ما شاء الا ان الخوض في عوالم الجسد والابتعاد عن الدموع التي في ادبياته تعني الروحانية جعلته يبتعد عن الاله الخفي . . .!

كان يشكو اوجاعه عبر ذلك الاله ومن خلال روحانيته اما الآن فلا يمكن له ان يشكو لانه ابتعد عنه !

سيروان يقسم التاريخ بحسب الرجوع الى لله . . .

احدهما قديم والاخر حديث . . .

القديم ما يرتبط بالاله دون اي وسائط ويصل اليه عبر الروح الانسانية من دون اي حجب او موانع . . .

اما الحديث فقد تركز كلياً في الابتعاد عنه ونسيان روحانيته دون الالتفات الى قدسة والاتصاف بصفاته ومحاسنه وجماله . . .!

سيروان في كتابة دموع وقديسون ابدع كثيراً ويحتاج الى وقت اكثر واطناب اطول ارجو ان اوفق الى اكماله دون ان تشغلني مشاغل الحياة . . .!

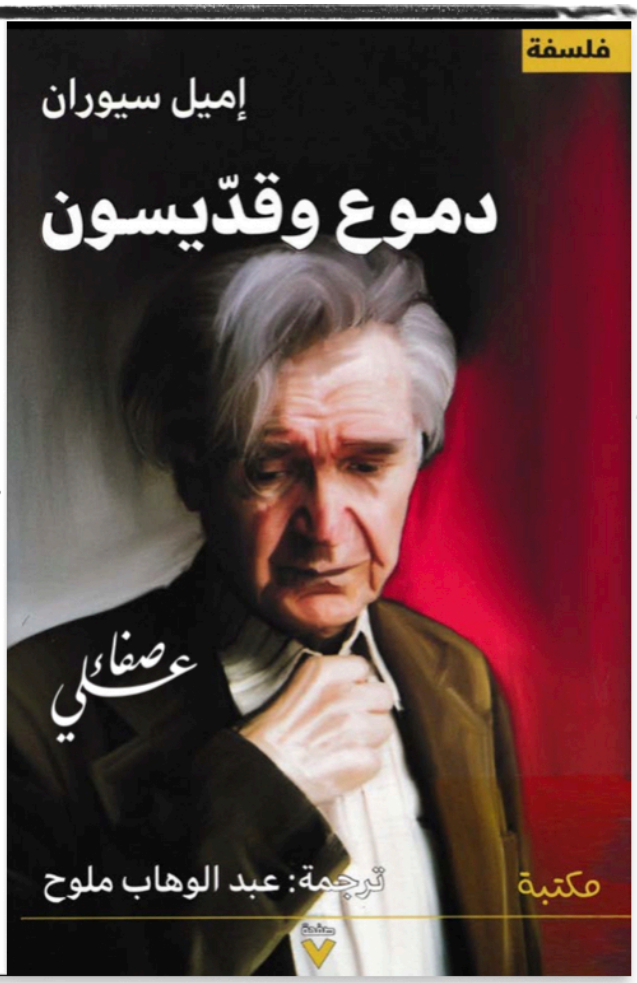

سيتجاهلان بعضهما. فالحاجة إلى المواساة تجاوزت المرض، وفي نقطة التقاطع بين السماء والأرض أنجبت هذه الحاجة، القداسةَ.

هناك من الناس من زيّن موته. فالموت بالنسبة إلى هؤلاء مسألة شكل. لكن الموت مادة ورعب. فلا يمكن أن نموت برشاقة دون الاحتيال على الموت.

وكلما فكرت في الرعب الحقيقي من الموت عند **تولستوي**[12]، أفهم ذلك الحس الداخلي بالنهاية عند الفيلة.

حدود كل ألم إنما هو ألم أكثر قسوة.

لم يتصالح الناس مع الموت إلا لتجنب الخوف الذي يسكنهم منه، لكن بدون هذا الخوف لم يعد للموت أي قيمة. فالموت لا يوجد إلا من خلاله. وتنبع الحكمة من الاتفاق مع الموت، في مواجهة النهايات الأخيرة، الموقف الأكثر سطحية من كل شيء.

لقد أصيب **مونتاني**[13] بدوره بالعدوى ولن نستطيع دون ذلك أن نفهم كيف يفتخر بنفسه وهو يقبل الأمر المحتوم.

(12) . نيكولايفيتيش تواستوي:1822-1910. كاتب روسي برع بشكل باهر في رسم متنوع للمجتمع الروسي من وجهة نظر تحليل شخصي متزهد. نابعة من تصور ص. في احتجاجي بأسلوبه المتفرد بصمته على الكتابة السردية وتأثر به الكثير من الكتاب في روسيا وخارجها من أهم مؤلفاته" الحرب والسلم" و "آنا كارينينا".

(13) . ميشيل مونتاني :1533-1592. فيلسوف فرنسي من رواد المقالة الحديثة بدأ حياته شكوكيا وكان شديد التأثر بالرواقيين. عالج من خلال "محاولاته" الفلسفية المتعددة مشكلة العقل وقصوره في الإجابة عن سؤال "ما الذي أعرفه؟" .تدور أغلب موضوعات كتاباته حول التسامح.

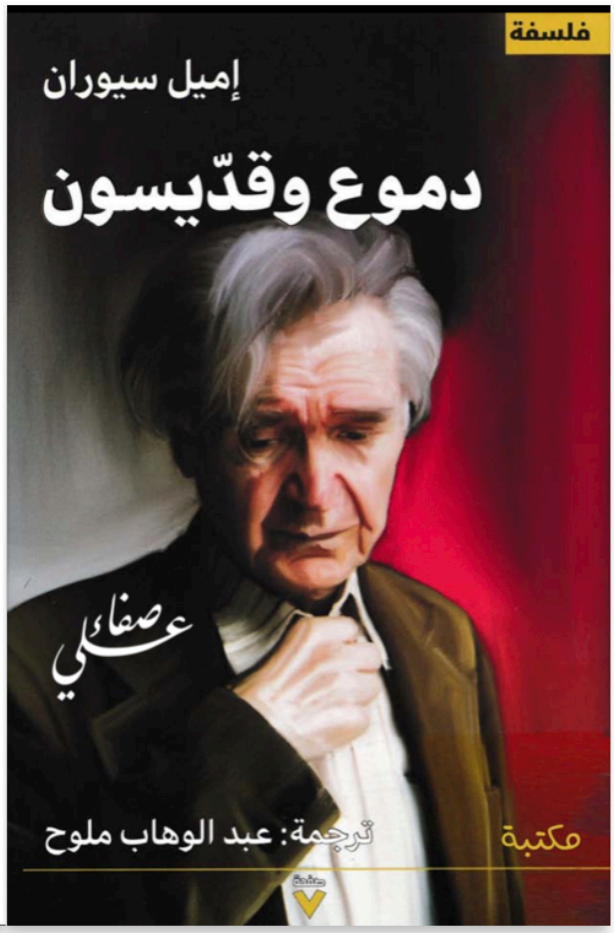

مع فجر عصر النهضة بدأ خسوف زمن الخضوع. ومن هنا جاءت هالة الإنسان الحديث التراجيدية. لقد كان القدامى راضين بمصائره. أما الإنسان الحديث فلم ينحن لهذا التنازل. إن احتقار المصير أمر غريب عنّا، فنحن تعوزنا الكثير من الحكمة لئلاّ نحبّ القدرَ بشغفٍ موجع.

الحدث التاريخي الوحيد في الفردوس هو هبوط آدم إلى الأرض.

الانشغال بالقداسة؛ مصارعة المرض بالمرض.

هل امتلكُ في داخلي ما يكفي من الموسيقى كي لا أندثر؟ هناك أنغام موسيقية (آداجيو) لا يمكن أن نتعفن أبدا بعد الاستماع إليها.

وحدها حالات الذهول الصوتية تبعث بداخلي أحاسيس الخلود. هناك أيام خارج الزمن نكون فيها فريسة لتذكرات مبهمة نجهل من أي آفاق أخرى جاءت ! فمن غير المعقول البكاء على الزمن.

لقد فعل الخمر أفضل مما فعلته علوم اللاهوت للتقرب من الله. فمنذ القديم كان هناك سكارى حزانى – وهل هناك غيرهم؟– تفرقوا على النساك والزاهدين.

هل يمكن لنا ان نسأل ماذا يقصد سيروان (لقد فعل الخمر أفضل مما فعلته علوم اللاهوت للتقرب من الله) ؟

لعل الجواب يتعلق بما قاله في بداية الصفحة وهو قوله (مع فجر النهضة بدأ خسوف زمن الخضوع) فهنا كانت المشكلة والمصيبة . . .؟! فجاء الخمر ليعالجها ويخرج الانسان من صمته اللاهوتي بعدما حطمته ادران الدنيا وتقدم النهضة والتكنلوجيا وما صاحبها من حروب وغزوات وغير ذلك . . .!

فالسكارى الذين صاحبهم الحزن هم اقرب للاهوت من غيرهم بل لا تفصلهم اي فواصل عن الاله ذا النظرة الحزينة المتألمة . . .!

هناك فترات نردُّ فيها كل شيء إلى الله. لكن يحدث أن يتملّكنا الخوف لحظة التفكير في أنّه قد كفّ عن الحضور. هذا العرضيُّ في المبدأ النهائي- فكرة ساذجةٌ في حدّ ذاتها غير أنها قائمة في الوعي-تملؤنا بِحَيرة عجيبة. أليس الله مجرد شغف هارب، مجرد موضة ذهنية؟

مازال البعض يتساءل إن كان للحياة معنى أم لا. وهو ما يدفع للتساؤل إن كانت محتملة أم لا. وهنا تتوقف المسائل وتبدأ الحلول.

ميزة التفكير في الله هو إمكانية أن نقول كل شيء بخصوصه. وكلما قللنا من ربط الأفكار ببعضها كلما كانت فرصة الاقتراب من الحقيقة وشيكة.

وإجمالا؛ يستفيد الله كثيرا من دائرة المنطق.

يؤكد كل من **شكسبير ودوستويفسكي** في داخلك الندم على أنك لم تكن قديسًا أو مجرمًا. هاتان الطريقتان للتدمير الذاتي...

لماذا يكتب القديسون بشكل جيد جدًّا؟ هل يرجعُ ذلكَ إلى أنّهم يستلهمون ويُوحى إليهم؟ والسبب؛ هو أنهم يستعملون أسلوبا متفردًا كلما شرعوا في وصف الله. فمن السهل أن يكتبوا وهم يصغون إلى وشوشاته. مؤلفاتهم هي في بساطة المافوق بشري، وبما أنهم لا يعالجون في كتاباتهم العالم فلا يمكن تسميتهم كتابًا. ولا نعترف بهم كذلك، لأننا لا نجد أنفسنا

لماذا، نادرًا ما نفكر في الكلبيين[24]؟ لأنهم عرفوا كل شيء واستخلصوا النتائج من هذا التكتم الفائق.

ودونما أدنى شك، من المستحسن نسيانهم. لأن عدم اهتمامهم بالوهم جعل منهم أذهانًا جشعة التعقيد.

لا أفهم أن واحدًا مثل أفلوطين[25] أو المعلم إكهارت[26] بإمكانهما دفع الوقت بهذا الشكل خاصة أنهما لن يشعرا بأي ندم عن ذلك. ليست القطيعة مع الروابط الزمنية هي التي تعذبهما وإنما هي الخشية من عدم النجاح في القطع مع هذه الأزمة مرة واحدة وإلى الأبد.

...استحالة كشف ذبذبة الجنائزي في الأبدي

الحياة في الله هي موت الكائن. ليست العزلة معه ولكن العزلة فيه. هي «**صوليداد أون ديوس**» لسان جان دو لاكروا. فعنده الجمع بين العزلة البشرية والصحراء اللامتناهية لله، هي لذة مبهمة، مبشرة بتعريفهما الكامل. ما الذي سيحدث التصوف في مغامرته الربانية، ما الذي يفعله في الله؟ ذلك ما

---

(24) . الكلبيين:أصحاب الفلسفة الطلبية التي تنظر باحتقار إلى الرغبات البشرية. تتجاهل المجتمع والعائلة ومن أتباعها التشاؤوميون والرواقيون. تغير مفهوم الكلبية في القرن التاسع عشر ليعني سلبية شديدة وارتياب عام وغياب الثقة في السلطة والمجتمع ومنظماته.

(25) . أفلوطين:205-270م .الشيخ اليوناني تلميذ إفلاطون يتفق مع المسيحية الآرثودكسية في فكرهم عن الخلقة الكل مت لا شيء ويرى أن حقيقة الإنسان تكمن في روحه عارض الأفكار الغنوصية بشدة.

(26) . المعلم إيكهارت :1260-1328.باطني من علماء اللاهوت من أهم رموز الإصلاح في المسيحية يرى آن الله هو الأب والأم ونحن الأبناء رفض فكرة الشيطان في الإنجيل مما أغضب الكهنة المسيحيين.

هذه بعض صفحات من الكتاب . . .

قراءته مرتين . . .

صعب الهضم ويحتاج الى تركيز . . .

يحتوي على (80 صفحة) الا انها تعادل بالفهم

والاستيعاب والادراك اكثر من 800 صفحة !

ان قمت بشرح كل واحدة منها وكل سطر فيحتاج الى

اطناب كبير . . .!

اكتفي بهذا القدر

والحمد لله رب العالمين

2023/12/9